الحياة المشتركة في الكتاب المقدس

الأب أيوب شهوان

مقدمة

تشكل الحياة المشتركة في الكنيسة، كما في الرهبانيات، علامة حية لحضور الرب فيها، ولعمل الروح القدس في أبنائها، كون التقاسم والتبادل والبنيان والارتقاء والسمو وغيرها من الفضائل التي تزين هؤلاء، هي دليل قاطع على أن الانتماء إلى الجسد الواحد هو حقيقة حية وحاضرة ومرئية.

في ما يلي سنقدم عرضًا موجزًا لهذا الموضوع من خلال تعليم الكتاب المقدس، بالإيجاز من العهد القديم، وبالتوسع أكثر من العهد الجديد.

١ – في البدء أراد الله الشراكة، ولكن!

يعلمنا سفر التكوين أن الله صنع الإنسان لكي يعيش في شركة معه، ويجد فيه لنفسه سعادته. وبالفعل، لقد دعا أبوينا الأولين إلى شركة حميمة معه هو بالذات، موشحاً إياهما بكل جاذبيّة تشكل في نهاية الأمر وسيلة بناء الواحد للآخر وللخليقة. ويؤكد السفر عينه أيضًا أن الله خلق الرجل والمرأة معاً، وأرادهما الواحد للآخر، قائلاً : "لا يحسن أن يكون الإنسان وحده، فأصنع له عوناً بإزائه" (تك ١٨:٢). وهنا من النافل التذكير بأنه لا يمكن أيّ حيوان أن يكون "عونًا، ولا هذا الـــ "إزاء" (تك ١٩:٢–٢٠)، مهما كان داجنًا أو متمتعًا بمعطيات محببة إلى قلب الإنسان. إن المرأة التي "بناها الله من الضلع التي أخذها من الرجل، والتي أتى بها الرجل، تبعث في هذا الأخير صرخة اندهاش، صرخة محبة وشركة : "هوذا هذه المرّة عَظم من عظامي، ولحم من لحمي" (تك ٢٣:٢). يكتشف الرجل في المرأة هذا الـــ "إزاء"، "أنا" آخر، تجعل وجوده خلاقًا، وحيًا، ومتمتعًا بالقدرة على النمو والاتزان.

لم يخلق الله إذًا الإنسان وحيداً : فمنذ البدء "ذكراً وأنثى خلقهم" (تك ٢٧:١)؛ وهذا الجمع بين الرجل والمرأة هو الصورة الأولى لتشارُك الأشخاص. لقد صُنع الرجل والمرأة إذًا "الواحد للآخر" : خلقهما الله لشركة شخصين يستطيع فيها كل واحد أن يكون "عوناً" للآخر، لأنهما في الوقت نفسه متساويان لكونهما شخصين ("عظم من عظامي")، ومتكاملان لكونهما "ذكراً وأنثى". وفي الزواج، يجمعهما الله بحيث، وهما "جسد واحد" (تك ٢٤:٢)، يستطيعان أن يعطيا الحياة البشريّة : "أنموا واكثروا واملأوا الأرض" (تك ٢٨:١).

ولأن الله محبة، فهو يحيا في ذاته سر اتحاد ومحبة. وبخلقه إنسانيّة الرجل والمرأة على صورته، فقد وضع فيها الدعوة الى المحبة والشراكة والاتحاد.

لكن، بالرغم من كل عطاءات الله التأسيسية العظيمة لحياة مشتركة معه وبين الناس، فقد عصفت الشهوة الآكلة، وسادت فاستعبدت، وقلبت كل شيء رأسًا على عقب، فأتت على كل ما نما وتكاثر، إذ حلت اللعنة بدل البركة، وذوى الخير الدافق أمام الشر الكاسح، فانقطع التواصل المتدفق حياة وحبًا، وانتفت حياة الشراكة بين الله والإنسان، وبين هذا وقريبه. لكن الكلمة الأخيرة هي ليست للموت، بل للحياة وسيد الحياة ومعطيها. سيأتي من نسل المرأة مَن يخلص، ويرد آدم وحواء من الأرض التي لا تعطي سوى الحسك والشوك، إلى جنة عدن، إلى ديار الرب، حيث ستعود الشراكة من جديد بالابن الحبيب يسوع.

٢ – عائلة الناصرة قدوة الحياة المشتركة

ننتقل مباشرة إلى الكلام على النموذج الرائع للحياة المشتركة، التي لها طعم خاص بها، ألا وهي عائلة الناصرة الخفيّة. فبالرغم من ندرة المعلومات والتفاصيل حولها وعنها، فإنها تُتيح لكل إنسان أن يشترك مع يسوع ويوسف ومريم في حياة يوميّة هنيئة ولو مضطربة، هادئة ولو صاخبة، مريحة ولو مضنية، تمامًا كما يحصل في حياة كل منا. لكن ما تعلمنا إياه عائلة الناصرة هو ماهية العائلة جوهريًا، ونوعية شركة محبتها، وعظمة طابعها المقدس، كونها عمل الله وبناءه.

ولا بد هنا من التأكيد، ولو بطريقة عابرة وسريعة، على أنه في مريم بدأ الروح القدس يُشرك الناس بالمسيح، وهم موضوع حب الله العطوف، ويجعل منهم بالتالي عائلة على مثال التي في الناصرة.

كذلك هو الأمر بالنسبة إلى الكنيسة، عائلة المسيح الروحية والمرئية، التي هي أبهى صورة عن حياة الشراكة بين أفراد عائلة الناصرة، وهي في العالم سرّ الخلاص، وعلامة لشركة الله والبشر وأداتها.

٣ – الشركة مع يسوع وبه

منذ البداية أشرك يسوع تلاميذه في حياته (مر ١٦:١–٢٠؛ ١٣:٣–١٩). فكشف لهم عن سر الملكوت (مت ١١:١٣–١٧)، وجعل لهم نصيباً في رسالته، وفرحه (لو ١٧:١٠–٢٠)، وآلامه (لو ٢٨:٢٢–٣٠). كما تكلم على شركة حميمة أعمق بينه وبين من سيتبعونه : "أثبتوا فيّ وأنا فيكم... أنا الكرمة وأنتم الأغصان" (يو ٤:١٥–٥).

إن المؤمنين الذين يستجيبون لكلمة الله، ويصبحون أعضاء جسده، يتحدون بالمسيح اتحاداً وثيقاً. وهذا يصحّ بنوع خاص في المعموديّة التي بها نتحد بموت المسيح وقيامته (روم ٤:٦–٥؛ ١كو ١٣:١٢).

ويبشر الرب بشركة سريّة وحقيقيّة بين جسده وجسدنا إذ يقول : "مَن يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيّ وأنا فيه" (يو ٦:٦-٥٦). ففي الافخارستيا التي بها نشترك اشتراكاً حقيقياً في جسد المسيح، نرتفع الى الشركة معه وفي ما بيننا، و نتحد بالمسيح الذي يصيرنا شركاء في جسده وفي دمه، لنكون جسداً واحداً (رج ١كو ١٠:١٦-١٧).

٤ – الروح القدس وحياة شراكة

يهدف عمل الروح القدس إلى إدخالنا في شركة مع المسيح لبناء جسده المكون منا، نحن المؤمنين به وعاملي مشيئة أبيه. فالروح القدس هو بمثابة الماويّة في كرمة الآب التي تؤتي الأغصان ثمرها (يو ١٥:١-١٧). بوصفه روح الشركة، يلبث في الكنيسة لا يفارقها، ومن ثمّ فالكنيسة هي السر العظيم، سر الشركة الإلهيّة الذي يجمع شمل أبناء الله المشتتين. ثمر الروح، خاصة في الليتورجيا، هو، في آن واحد، شركة مع الثالوث الأقدس، من جهة، وشركة أخويّة، من جهة ثانية (١يو ١:٣-٧).

ومن أهداف صلاة استدعاء الروح القدس في الذبيحة الإلهية، تحقيق ملء اشتراك الجماعة في سر المسيح. لذا يجب أن تظل دائماً معنا "محبة الله الآب، ونعمة ربنا يسوع المسيح، وشركة الروح القدس" (٢كور ١٣:١٣)، وتؤدي ثماراً حتى من بعد الاحتفال الافخارسيتي، من حيث نمو الشراكة والوحدة بين أفراد الجماعة.

تستمد الجماعة المؤمنة وحدتها من "شركة الروح القدس" الذي يجمع أبناء الله في جسد المسيح الواحد. وما تشديد كتاب أعمال الرسل على أنه، في جماعة أورشليم الأولى، كان التلاميذ "يواظبون على تعاليم الرسل والشركة، وكسر الخبز، والصلاة" (أع ٢:٤٢)، سوى نتيجة طبيعية لحياة الشراكة مع الرب والاتحاد المتواصل به، وبفعل الروح القدس العامل باستمرار.

ومن المفيد، في هذا السياق، التذكير بأن تقاسم الخيرات هو مقياس للحياة المشتركة الصحيحة؛ وهذا ما حدا بكاتب أعمال الرسل إلى إدراج كلمته الشهيرة والمعبرة جدًا : "كان كل شيء لهم مشتركاً" (أع ٤:٣٢). إن كل ما يملكه المسيحي الحقيقي يعدّه مِلكاً مشتركاً بينه وبين الجميع، وهو مستعد ومتأهب أبدًا لمساعدة المسكين وسد عَوَز القريب، عالمًا في أعماقه أنه ما هو سوى مدبّر لخيرات الرب (لو ١٦:١، ٣)؛ بهذا تتبين الحياة المشتركة الحقة.

٥ – الحياة المشتركة بحسب ١ كو ١٠/١٦-١٧

تتجلّى الشركة بشكل رائع من خلال نصّ مميز حول هذا الموضوع، هو ١ كو ١٠/١٦-١٧، حيث يقول بولس ما يلي: "كأس البركة التي نبارك، أليست الشركة في جسد المسيح ؟ وبما أنه ليس هناك سوى خبز واحد، فنحن الكثيرون جسد واحد، لأننا جميعاً نشترك في الخبز الواحد. إن نظريّة

"الشركة" هي أولاً متجذّرة في سر القربان الأقدس الأفخارستي، وهذا هو السبب الذي لأجله، اليوم أيضاً، في التعبير الكنسي، نسمّي، وعن صواب، تناول جسد الرب فِعلَ "اشتراك". من خلال هذا السرّ، ندخل بطريقة ما في شركة دم مع يسوع المسيح، حيث أن الدم، وفق النظريّة البيبليّة، يعني "الحياة"، فتنساب هكذا حياة المسيح في حياتنا. وفي الإطار الأفخارستي، يعني "الدم" بالتأكيد العطاء؛ بالتالي، إن الاشتراك في الدم هو الدخول في ديناميكيّة هذه الحياة، ديناميكيّة هذا "الدم المسفوك"، فتضحي حياتنا وجوداً حياتياً للآخرين.

من وجهة نظر أولى، الكلمات التي قيلت على الخبز هي أيضاً أكثر تأكيداً. فالشركة هي في جسد المسيح، وهذا ما يوضحه بولس من خلال المقارنة مع اتحاد الرجل والمرأة (رج ١ كو ٦:١٧ي؛ أف ٥:٢٦-٣٢). يفسّر بولس هذا الأمر من وجهة نظر أخرى أيضاً، فيقول : إنه خبز واحد هذا الذي نتلقاه جميعنا، وهذا حقيقي إلى حد كبير : "فالخبز"، وهو المن الجديد الذي يهبنا الله إياه، هو للجميع المسيح الوحيد. لسنا نحن من "يهضم" هذا الخبز، بل هو مَن يحوّلنا، فنصبح مطابقين للمسيح، وأعضاء جسده، ومتحدين به. هذا ما يقتلعنا من ذاتنا ليدخلنا في ذات شموليّة واسعة. نصبح شبيهين بالمسيح، وهكذا، من خلال الشركة معه، نتحد في ما بيننا، وأعضاء الواحد للآخر فيه وبه. الشركة مع المسيح هي أيضاً شركة الواحد مع الآخر، فلا نبقى الواحد الى جانب الآخر، وكل لذاته، بل يصبح قريبي "عظماً من عظامي، ولحماً من لحمي" (رج تك ٣:٣٢)، فنتبين هكذا أن الشركة مع المسيح هي دائمًا ذات بعد جماعي.

يجب تأكيد ذات الشيء بالنسبة إلى الصلاة؛ فهي بالطبع تُتحِدَني بالمسيح، ولكن أيضاً، وبطريقة عضويّة، مع الآخر الذي يتّحد مع المسيح بتناول جسده ودمه، كما بالصلاة. عند ذاك يصبح انفتاحي على الآخر برهاناً على انفتاحي على المسيح وعلى اتحادي به، وشركتي معه، وتأكيداً على أصالة محبتي له. فشركتي مع المسيح عند المناولة لا تتوقف هنا، بل تنطلق نحو شركة ديناميكيّة مع الآخر فتصبح للفريقين حياةً حقّة. يسمح لنا هذا بالتأكيد على أن الكنيسة ليست تجميعَ أفراد الواحد إلى جانب الآخر أو تجمّعًا في ما بينهم، بل هي تولد من الخبز الواحد، ومن الرب الواحد، وتستمر به. نستنتج في هذا السياق أن الشركة بين الكنائس ليست عمليّة تنظيم بشريّة، ولا نتيجة اقتراحات وقرارات من هنا أو هناك، إنما نتيجة الاشتراك في جسد الرب ودمه الذي يوحّد الجميع بالمسيح يسوع. فمَن يتّحد بالمسيح ويصبح قديساً لا يمكنه أن يبقى انعزالياً أو منغلقاً على ذاته، بل يتحول قلبه وحبّه أيضاً نحو الآخر؛ ولنا في سِيَر القديسين أمثلة رائعة على ذلك، نذكر على سبيل المثال مار منصور, والأم تيريزا دي كالكوتا، وغيرهما كثيرين. إن الشركة مع المسيح هي محرّك المحبّة للآخرين، وخاصّة للمحتاجين. لذلك تبقى الكنيسة الرحومة أبهى صورة عن الرحمة الإلهيّة تجاه الناس، وعن حياة الشراكة بين الله والإنسان، وبين هذا وقريبه.

٦ – الحياة المشتركة بحسب ١ يو ١:٣-٧

في ١ يو ١:٣-٧. يتكلّم يوحنا بداية على اللقاء الذي تم مع الكلمة التي صارت لحماً، ويؤكد على أنه ينقل ما رآه بأم العين، وما لمسه بيديه. لقد جاد عليه هذا اللقاء بـــ "الشركة" مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح، والتي صارت اتصالاً دائمًا. هذه الشركة مع الله الحي، يقول يوحنا، تضع الإنسان في النور، في حقيقة الله، التي يُعبّر عنها في الوصيّة الجديدة والتي تتضمن كل الباقي، أي وصيّة المحبّة. هكذا تصبح الشركة مع "كلمة الحياة" حياة حقّة، تصبح محبّة، وشركة متبادلة : "إذا سرنا في النور كما هو ذاته في النور، نكون في شركة الواحد مع الآخر" (١يو ١:٦). يبيّن لنا هذا النص، كما عند بولس، أن الشركة مع المسيح تصبح شركة مع الله، شركة مع النور ومع المحبة، وتصبح بالتالي الحياة الحقّة، التي توحّد الجميع في الحق.

٧ – مشاطرة الأفراح والأحزان تنمي الحياة المشتركة

أجمل ما في الحياة المشتركة هي إذًا شركة المحبة. ففي الشركة التي تتجلى بأبهى مظاهرها في حياة القديسين، يتبين لنا أنه "ما من أحد يحيا لنفسه، ولا أحد يموت لنفسه" (روم ١٤:٧). "فإن تألم أحد تألم معه جميع الأعضاء؛ وإن أكرم أحد يشترك في فرحه جميع الأعضاء. والحال أنكم جسد المسيح وأعضاء كلٌ بمقدار" (١كو ١٢:٢٦-٢٧). ويعلمنا بولس الرسول أيضًا أن "المحبة لا تلتمس ما هو لها" (١كو ١٣:٥؛ رج ١٠:٢٤). هكذا، كل عمل نعمله في المحبة يكون في صالح الجميع، في تضامن مع جميع البشر، يقوم على شركة القديسين. بالتالي كل خطيئة تُرتَكَب هي تعد صارخ على حياة الشراكة وإيذاء مباشر ومؤلم لها. هذا القول يدفعنا إلى التطرق إلى موضوع التوبة كعنصر هام جدًا في الحياة المشتركة.

٨ – لا حياة مشتركة من دون التوبة والمصالحة

نود أن نؤكد بدايةً على أنه، لأننا مائتون، أو على الأقل مجروحون بالخطيئة، المفعول الأول لعطية المحبة هو غفران الخطايا. إن شركة الروح القدس (٢كو ١٣:١٣) هي التي، في الكنيسة، تعيد الى المعمّدين المثال الإلهي المفقود بالخطيئة، كما أنها ترمم الشركة مع الله ومع الآخر.

بالخطيئة التي تحدر إلى الهاوية السحيقة وتميت ("بيننا وبينكم وهدة عظيمة"، كما قال إبراهيم للغني)، تنقطع الشراكة مع الله، وبذات الفعل مع الآخر، تمامًا كانقطاع الأغصان عن الكرمة، والنتيجة هي اليباس، فالنار والفناء.

إن العودة الى الشركة مع الله التي تُفقد بالخطيئة، هي حركة تولدها نعمة يهبها الرب الرحوم والمعني بخلاص البشر. لكن لن يعيد الاتصال والوصال بين الله، من جهة, وبين ابن الانسان "الشاطر"، الجاهل والأحمق، من جهة ثانية, سوى أنات الروح القدس الذي يشفع به, وموت المسيح، ذبيحة العهد الجديد (١كو ١١:٢٥)، التي تعيد الانسان الى الشركة مع الله (خر ٢٤:٨)، محققةً المصالحة بينهما بالدم المهراق عن الكثيرين لمغفرة الخطايا (مت ٢٦:٢٨؛ رج لا ١٦:١٥-١٦).

يحقق سر التوبة إذًا ورشة إعادة بنيان، بنَفَس طويل وصبر وأناة، إذ لا ورشة إلا وتأخذ وقتها الكافي؛ فالتهديم والتحطيم والتقويض تتم كلها بسهولة وسرعة كطرفة عين، أما البنيان فالبكد المضني، والجهد الكبير، والتضحيات الغالية، تطول مدته طول انتظار الأب لابنه الشاطر الضال، وترقبه له ترقبًا هو أطول من دهر.

المصالحة مع الله والقريب، هو مصالحة مع الكنيسة، جسد المسيح. مَن أساء إلى أخيه أساء إلى جسد الرب ودمه، كما إلى كنيسته. لذلك أولاها الله سلطان الحل والربط؛ فمَن تعزله من شركتها يُعزل من الشركة مع الله، ومَن تقبله ثانية في شركتها، يقبله الله أيضاً في شركته. فالمصالحة مع الكنيسة لا تنفصل عن المصالحة مع الله. وبالنتيجة، الحياة المشتركة الحقة التي بالمسيح يسوع وبروحه القدوس، تمر بالكنيسة.

خاتمة

لا بد أن نشير في ختام هذه الجولة البيبلية التأملية في عالم الحياة المشتركة، من أن نذكر بأن مواضيع أخرى ذات أهمية كبيرة تتعلق بهذا الموضوع، ينبغي التوقف عندها ومعالجتها ليكتمل النصاب، مثل شركة الخيرات الروحيّة، وشركة الأسرار، وشركة المواهب، وشركة القديسين، وغيرها، التي لها دورها في فهم وتثبيت وتفعيل الحياة المشتركة.